الدرس (01): نظرية الأدب والعلوم الأخرى

تمهيد:

يعد علم النفس من العلوم الإنسانية التي اتصل بها الأدب في ممارساته الفنية المتعددة، وقد نتج عن صلة النص الأدبي بمقولات التحليل النفسي ما يعرف بالنقد النفسي الذي أثبت وجود هذه الصلة، وفرض حضوره في الساحة النقدية العربية.

النقد النفسي وإشكالية اتصال الأدب بعلم النفس:

النقد النفسي من الاتجاهات التاريخية التي تصل الآثار الأدبية بسياقاتها التاريخية أو الاجتماعية أو النفسية، وهو من المناهج التقليدية؛ حيث يتعامل مع الأدب من الخارج إذ يركز على شخصية المبدع[1]. ويمكن تبرير انجذاب المبدعين ونقاد الأدب خاصة نحو النظرية الفرويدية بسبب أن المذهب الطبيعي الأدبي قد قدّم صورة الإنسان كضحية للبيئة والعوامل البيولوجية، كما أن العنصر النفسي أصيل في الأدب، فالأدب —في حقيقته– تجربة شعورية كونه استجابة لمؤثرات نفسية معينة. والاتجاه النفسي في النقد —مثل الاتجاه السوسيولوجي– يحاول أن يقرأ الأدب قراءة تمتد خلف سطحه الظاهري؛ ذلك أن (فرويد) قام بتأسيس الضوابط العامة للقراءة النفسية للأدب، وحاول —في ضوء هذه الأسس– أن يضع تفسيرا لظاهرة الإبداع الفني. والمعلوم أن تطبيق المنهج النفسي في دراسته الأدب يتجلى في ثلاثة اتجاهات: الإبداع، والمبدع، والقارئ مُقَدِّما في كل اتجاه تصوّرا معينا[2]:

1– البحث في عملية الخلق والإبداع، وبيان العوامل الشعورية وغير الشعورية التي تتشكل من خلاله.

2– الدراسة النفسية للأدباء، لبيان العلاقة بين مواقفهم وأحوالهم الذهنية، وبين خصائص نتاجهم الأدبي؛ أي: معرفة سيرة المؤلف لفهم إبداعه، وفهم نفسيته كذلك من خلال نصوصه.

3– دراسة العلاقة بين الأدب والآخرين؛ أي: بيان تأثر المتلقي بالأدب.

[1]– ينظر: وليد قصاب، مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، ط1، جمادى الآخرة 1428هـ–2007م، ص52.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص53–54.

لذلك، فإن المنهج النفسي هو تفسير النص الأدبي من خلال الحياة الخاصة لمؤلفه، وكذلك استنباط حياة المؤلف من خلال نصوصه. ومن هنا، فإن الاتجاه النفسي يحاول تعقّب حياة المؤلف للكشف عن العلاقة بينهم وبين أدبهم؛ أي: دراسة سير المؤلفين واعتبارها وسائط لفهم أعمالهم الأدبية وتفسيرها ... إذا، إن العمل الأدبي انعكاس لشخصية صاحبه ما يجعله عونا على فهم حياته .. وإلى جانب اهتمام هذا النقد بالمرسل/المؤلف، فإنه يهتمّ كذلك بصلة العمل الأدبي بالآخرين/القرّاء وتأثرهم به مُسْتَفسِرا: لماذا يستثيرنا الأدب؟ .. وهذا التطبيق الذي يركز على المتلقي هو من التَّصَوُّرات الحديثة التي توقفت عند أهمية حالة القارئ، وراحت تُزيح المؤلف من دائرة الاهتمام، ومن ثم تركيزها على ما يُقَدّمه الأدب للقارئ من مُتْعَة وإشباع لرغباته. وبناءً على ذلك، فإنّ الاستعانة بعلم النفس في دراسته الأدب لا تقتصر على مواجهة النصّ بُغْيَة فهمه وتذوّقه بل تشمل إلى جانب ذلك[1]:

- محاولة تفسير عملية الإبداع ومعرفة سير المتعة التي يزودنا بها العمل الأدبي.

- البحث عن أوجه الارتباط بين نتائج علم النفس والأساليب الفنية التي استُجِدَّتْ في الأجناس الأدبية المختلفة.

- معالجة فهم العمل في ضوء شخصية صاحبه.

- كيفية تذوّق العمل الأدبي.

حاول فرويد وضع الأسس العامة للقراءة النفسية للأدب، وحاول في ضوئها، وضع تفسير للإبداع الفني عن طريق فكرة التَّسامي النفسي لدى المبدع الذي يندفع تحت وطأة الرغبة اللاشعورية نحو إنتاج ما يُشْبِعُ هذه الرغبة ذلك أنّ نشاطه النفسي —حسب فرويد– موزَّعٌ بين ثلاث قوى: الأنا (الشعور)، والأنا الأعلى (الضمير)، والهُو (اللاشعور). وقد وَجَدَ فرويد في الأدب مَجَالا خصبا لاكتشاف حياة الشخص اللاشعورية مُعْتَبِرا الأدب وثيقة معرفية/نفسيّةً الأمر الذي أدَّى إلى إهْمَال بِنْيَاتِهِ الفنيّة إهمالا تَامًا. ونستنتج من ذلك النقد النفسي قد غَيَّرَ من

[1]– ينظر: إبراهيم عوض، مناهج النقد العربي الحديث، مكتبو زهراء الشرق، القاهرة، 2005، ص98-125.

المشهد النقدي الحديث وحتى المعاصر وهو ما يجعلنا نُقِرُّ بإسهامات التحليل النفسي والقبول بمداخلاته في مجال النقد الأدبي ومجال الفنّ بصورة أوْسع[1].

2/ التحليل النفسي/مبادئه وآلياته:

إن البحث في النقد النفسي/القراءة النفسية مؤداه تقصي الأدوات/الآليات والمفاهيم التي ترتكز عليها هذه القراءة التي تتأسس في ضوء التحليل النفسي في تناولها للآثار الأدبية، وهذا لأجل معرفة مدى جدوى هذا المنهج في قراءة الأدب ... ولأجل ذلك، فإنّه لابد من معرفة مبادئ الممارسة النفسية التي حددها (مارسيل ماريني) كالتالي[2]:

– ترك الحرية/أكبر حرية في الكلام للمرضى (مرضى المحلل النفساني) مع الاستعانة بالكلام دون تدخل مكره أو في موضعه من المعالج.

– تركيز الانتباه على التداعيات اللاإرادية.

– التحليل النفسي هو تجربة مَسْرحُها اللغة (التكلّم، والتكلّم فقط)

– اللاوعي، هو المفهوم المؤسس للتحليل النفسي وإسهامه الأكبر في الفكر المعاصر ... ويسلّط فرويد الضوء على الدينامية اللاواعية المرتبطة بالرغبة والكبْت، ويحُلّ رموز اللاوعي في الإنتاجات النفسية.

– التكثيف: ظهور الشخص في هيئة غريبة تجمع ملامح تنتمي إلى عدد من الأشخاص الحقيقيين.

– الإزاحة: انزياح العاطفة إلى تصوير آخر يرتبط به بسلسلة تَدَاعٍ/انفصال العاطفة عن التصوُّر الأصلي المبرر لها إلى تصوُّر آخر لا علاقة لها به، ما يجعلها تظهر في صورة غير مفهومة.

– الحلم: تفريغ نفس الرغبة في حالة الكبت، كل نتاج نفسي هو حلّ وسط بين قوة الرغبة والقدرة الكابتة للوعي (الصراع بين الرغبة والمحظور، بين الرغبة اللاواعية والرغبة الواعية، وبين الرغبات اللاواعية ذاتها).

[1]– ينظر: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تأليف: مجموعة من الكتاب، ترجمة: رضوان ظاظا (سلسلة عالم المعرفة)، ع: 221، ذو الحجة 1417هـ–مايو 1997، ص59.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص63-71.

– إنّ النزوات اللاواعية تكون فاعلة في جميع التكوينات النفسية: في الحلم وزلّة اللسان والهفوة والعرض والإبداعات الأدبية.

3/ النقد النفسي وتحوّل الفعل القرائي:

عرفنا أسس منهج التحليل النفسي بوصفه علما نشأ في حقله الخاص (حقل الأمراض الذّهنيّة) حيث إنّ ممارسات فرويد التحليلية هي –في جوهرها– اختبار للكلام والخطاب الأدبي .. وفيما يأتي نحاول مناقشة إسهامات التحليل النفسي في مجال النقد الأدبي، دوره في تغيير قراءتنا للنصوص الأدبية، كيفية رؤيتنا لماهية الإبداع الفني. وبعبارة أخرى، إنّنا نتناول في هذا المبحث اتجاه المحللين صوب الأعمال الأدبية بحثا عن توضيحات لطروحاتهم أو تصوّراتهم ولإنتاج معرفة حول الآثار الأدبية. وفي سياق حديثنا عن المنهج في النقد النفسي، فإنه لابدّ من الإشارة إلى إشكالية المنهج في هذا الاتجاه النقدي حيث ظاهرة التّباين في المقاربات النقدية النفسية بسبب اختلاف نظريات التحليل النفسي تبعا للمدارس التي تنتمي إليها (من فرويدية ويونغية وكلاينية ولاكانية ...)، مع صعوبة ربط مفاهيم التحليل النفسي التي تظهر خلال البحث، التنوع في الغايات المقترحة، وكذلك التنوع اللامحدود في مادة البحث التي تشمل كلّ نصّ أدبيّ، من أيّ عصر ومكان وأيًّا كان نوعه. إنّ تحليل فرويد للأعمال الأدبية قد انطلق من النقد، فالنصوص –بالنسبة له– تشكل فرصا لتطبيق العلم على موضوعات كانت بعيدة عنه، والتحليل النفسي –حسب فرويد– يسعى إلى «معرفة خلفية الانطباعات والذكريات الشخصية التي استند إليها الكاتب لبناء عمله»[1]، وهذا يعني أنّنا ننتقل من النصّ إلى السّيرة الذاتية، ومن الشخصيّة إلى الكاتب. ويؤكد فرويد بأنّ العالم الشعري هو عالم غير واقعي، وهو نتيجة لعبة التقنية الفنية تثير الاستمتاع بأشياء لا تكون سببا في نشوئها لو كانت حقيقته.

إنّ الحديث عن القراءة النفسية هو حديث عن النقد الأدبي التحليل النفسي من حيث تعديله لبعض مفاهيم التحليل النفسي أو إغناؤه لها بفضل النصوص الأدبية التي يحاول الكشف عنها، وهو حديث عن اللحظة التاريخية التي استقل فيها النقد الأدبي التحليل النفسي مع أعمال عدد من الدارسين والنّقّاد من أمثال: جاك لاكان، وجوليا كريستيفا، ومارسيل ماريني، وجاستون باشلار، وجان بيير ريشار، وشارل مورون ... ولعلّ هذا ما

[1]– جان إيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين، تر: قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1993، ص194.

يعني تطور التحليل النفسي نفسه الذي لم يعد مقتنعا بمفاهيم فرويد خصوصا ما تعلق منها بالعقد النفسية. ومن ثمّ أصبح محور تساؤل القراءة النفسية: هل يمكن تحليل النصّ نفسيا؟ وبضمن ذلك تساؤل جان بيللمان – نويل: «هل يمكن قراءة مادة بحث أدبية بالاستناد إلى فرويد بدون أخذ المؤلّف بعين الاعتبار ونسيانه؟ الحقيقة، أننا نرى هنا مستقبل الأبحاث في (علم النفس الأدبي)»[1]. وسُمّي هذا الفرع المعرفي الجديد: "التحليل النفسي النّصّي" والذي اعتُمِدَ بديلا لنموذج فرويد بعد إدراك عدم الحاجة إليه بسبب القصور في تحليل الكاتب أو الشّخوص نفسيّا الأمر الذي تطلّب افتراض وجود "لاوعي النص" لا يختلط بلاوعي الكاتب .. إنّ هذا النموذج القرائي الجديد يسعى إلى إبراز رغبة فريدة ولاواعية في نصّ فريد.

والواقع أن التَّحوَّل النَّقدي المنهجيّ في مجال القراءة النفسيّة للأدب قد تجاوز بنية المؤلف أو بنية عمله، بل بنية العمل الأدبي المقروء، فالناقد النفسي يجد نفسه –هنا– محصورا بين صاحب الخطاب المؤوّل ومتلقّي التَّأويل، أيْ: بين الكاتب وقارئ العمل النّقديّ، على أنه «كلما انتبهنا إلى خصوصيّة النصّ الأدبي وخصوصيّته إنتاجه وأصالة العلاقة الما بين– ذاتية التي تتعقّد حوله، تساءلنا عن طريق تكييف المنهج المرتبط بالحالة التحليلية حصرا مع حالة القراءة»[2]. وهكذا، أصبح العمل الأدبي تجربة يُعيد القارئ بناءها وتمثّلها تمثُّلا وجدانيا، كما صارت القراءة ذاتها نصّا ذا دلالات نفسيّة من خلال بناء/إنتاج القارئ لتجربته الشخصية المعبّرة عن تصوّراته ونفسيّته. وتبعا لذلك، فإنّ التَّطبيق النفسيّ في القراءة النّصّيّة أصبح شديد العناية بنفسيّة القارئ عنايةً تُضاهي اهتمام النّقد النفسيّ التّقْليديّ بشخصيّة المؤلف ونفسيّته.

[1]– المرجع نفسه، ص216.

[2]– مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، مرجع سابق، ص75.